December 2020
Vol 2 Issue 4

The Desert In Female Writing Between Miral Al-Tahawy In The Novel Al-Khaba And Malika Moghaddam In The Novel The Forbidden

Dr. Zawaghi Sakina

Sakina @yahoo.com

Issn print: 2710-3005. Issn online: 2706 – 8455, Impact Factor: 1.705, Orcid: 000- 0003-4452-9929, DOI 10.5281/zenodo.10633974, PP 84-98.

Abstract: Both Miral Al-Tahawy and Malika Moghaddam started building their vision on the subject of the desert from two different, opposing points of view, represented by the duality of (the sacred and the profane). As for the sacred, it was associated with Miral Al-Tahawy in the novel “Al-Khaba,” while the profane was associated with Malika Moghaddam in the novel “The Forbidden.” Miral Al-Tahawy looked at the desert from a moderate perspective. It is neither completely rejected nor forbidden to the point of being cursed, as was stated by Malika Moghaddam, who believes that the desert is the punishment and the curse. The novel The Invisible and the Forbidden is considered an autobiography that indicates the desire to delve into the individual self and contemplate its conditions and changes and the scope of its freedoms with the different types of these freedoms, in the desert space and Bedouin life and the traditions and customs that distinguish it.

Keywords: Desert, female writing.

الصحراء في الكتابة الأنثوية بين ميرال الطحاوي في رواية الخباء ومليكة مقدم في رواية الممنوعة

الملخص: انطلقت كلا من ميرال الطحاوي ومليكة مقدم في بناء رؤيتهما حول موضوع الصحراء من نقطتين مختلفتين متضادتين يتمثلان في ثنائية (المقدّس والمدنّس)، فأما المقدّس فقد ارتبط بميرال الطحاوي في رواية "الخباء" وأما المدنس فقد خاص بمليكة مقدم في رواية "الممنوعة". نظرت ميرال الطحاوي إلى الصحراء نظرة وسطية فلا هي

(الصحراء) مرفوضة كليا ولا هي ممنوعة إلى درجة اللعنة مثلما ورد عند مليكة مقدم التي ترى أن الصحراء هي العقوبة هي اللعنة. وتعتبر رواية الخباء والممنوعة سيرة ذاتية تدل على الرغبة في التوغل في الذات الفردية وتأمل حالاتها وتغيراتها ومجال حرياتها باختلاف أنواع هذه الحريات، في فضاء الصحراء والحياة البدوية وما يميزها من تقاليد وعادات.

الكلمات المفتاحية: الصحراء، الكتابة الأنثوية.

المقدمة

إن ميرال الطحاوي هي فاطمة في الخباء، ومليكة مقدم هي سلطانة في الممنوعة، وقد سعت كلا منهما إلى محاولة التخطيط لحياة مختلفة عن طريق توعية المرأة "فإن كتابة المرأة عن ذاتها ترتبط بحركة تحرير المرأة في العالم العربي الحديث وهناك نساء كثيرات قد تزعمن هذه القضية وبدأن الكتابة عن أنفسهن بانتشار مختلفة" (جبايلي، ٢٠١٥، ص ٨١) وتناشدن التقدم وتحقيق سلطة الذات والفصل بين حرية الذات والكيان وسلطة العادات والتقاليد.

إن الدارس للكتابات الأنثوية يلاحظ مدى تنوع موضوعاتها فهي لاسيما موضوعات على قدر كبير من الأهمية تنوعت بين ما هو ذاتي واجتماعي وفكري مثل القضايا التي تخص العلم والتي تعكس حق المرأة في التوظيف الصحيح لهذه النعمة ألا وهي نعمة العلم والبحث وقضايا التقدم والانفتاح على الآخر وتحقيق حرية الكيان الأنثوي بالدرجة الأولى إلى جانب قضايا الطلاق والجهل واستغلال المرأة وطمس أنوثتها أو تأجيجها وقمعها. مثل أنوثة أنثى الصحراء التي تعد ثاني نقطة محورية بعد محور الصحراء في هذه الورقة البحثية التي سنثير فيها النقاش حول بعض النقاط الجوهرية مثل الفرق الذي تصنعه الكتابة الأنثوية فيما يخص موضوع الصحراء وما الذي تستنبطنه رؤية كلا من ميرال الطحاوي ومليكة مقدم؟ ثم ماذا تمثل الصحراء بالنسبة للأنثى؟ وما هي المنطلقات الأساسية التي تبنتها كلا من الكاتبتين في تصورهما لموضوع الصحراء؟

قبل أن نبحر في تفاصيل هذه الإشكالات حري بنا أن نقف مع معنى عنوان الروايتين نظرا لما للعنوان من أهمية في دراسة الموضوع وتقصي دلالاته وأبعاده هذا وقد اعتنت الدراسات المعاصرة اعتناء مميزا بدراسة العنوان باعتباره من العتبات الجوهرية التي تقود الدارس إلى سبر أغوار النص واستكناه غموضه.

١- الخباء لميرال الطحاوي:

معنى الخباء لغة: ورد في معجم لسان العرب لابن منظور أن " الخباء بيت من الوبر أو الشعر"(ابن منظور، ٢٠٠٤، مادة "خ ب ء"). وأما في معجم الوسيط فقد ورد أن الخباء بيت من وبر أو شعر أو صوف يكون على عمودين أو ثلاثة والمنزل. وفي الحديث أنه أتى خباء فاطمة، وغشاء البُرّة والشعيرة في السنبلة وكمام النور (ج) وأصله أخبئُه سهلت الهمزة للتخفيف والخبأة: المخبوء والمدُخر. واستخبى خباء نصبه ودخل فيه" (المعجم الوسيط، ٢٠٠٤، ص ٢١٣).

- **المعنى الاصطلاحي للخباء**: يتطابق اسم الخباء تطابقا اصطلاحيا مع متن الرواية التي تدور أحداثها في الصحراء التي تُعرف بالأخبية وهي بيوت الشعر والوبر، والخباء في الرواية هو مخبأ لكل معاناة فاطمة في تلك القرية وفي ذلك البيت التي تقوده وتتحكم فيه تلك الجدّة الحادة والصارمة التي تسن القوانين وتقتفي أثاره البنات من طلوع الفجر إلى المغيب.

الخباء في الرواية رمز إلى كل أسرار الأنوثة المخبوءة بين طيات رمال الصحراء المتوهجة وبيوت الشعر والوبر المنعزلة تماما عن مواكبة الحياة العادية. الخباء في الرواية كل مخبوء ميرال الطحاوي الفكري والنفسي والاجتماعي الذي وظفته في الرواية والذي يمثل الدعوة إلى كشف المسكوت عنه وتحرير رغبات الأنثى فاطمة (الرمز) من قبضة الجدّة التي لا ترغب في خِلفة البنات.

الخباء في الرواية هي مخبوء الأسرار التي تخفيها الصحراء والمتمثلة في العادات والطقوس والتقاليد والأعراف التي يسنها أهالي المنطقة.

الخباء هو مخبوء العقلية الذكورية في المجتمع الصحراوي التي تستغل أنوثة الأنثى وتسعى إلى طمسها.

الممنوعة لغة: اسم على وزن المفعولة (وهي اسم مفعول) مشتقة من الفعل منع وقد جاء في معجم الوسيط " (منعه) الشيء ومنه منعًا: حرمه إياه، ويقال منعه من حقه ومنع حقه منه، ما نعه الشيء: نازعه إياه" (المعجم الوسيط، ٢٠٠٤، ص ٨٨٨).

الممنوعة اصطلاحا: يدل عنوان الممنوعة في الرواية على الكتابة في حد ذاتها؛ وهي سلطانة في الرواية والحال نفسه بالنسبة لمدلول الخباء الذي يعكس أنوثة فاطمة المؤجلة نعم الممنوعة هي سلطانة التي قابلها أهل قريتها عندما عادت بالشتم والسب

وأبانوا عن عدم تقبلهم لعودتها فهي المرفوضة والممنوعة وغير المرغوب فيها لما تحمله من أفكار تحررية أرادت قبل سفرها إلى فرنسا أن تحيا بها في بيئة صحراوية بدوية.

الممنوعة: هو كل ما رغبت في تحقيقه مليكة مقدم وناشدته من أفكار وحريات منذ طفولتها ومراهقتها إلى أن صارت طالبة في الجامعة ولأنها قوبلت بالرفض والمنع اضطرت أن تهاجر إلى فرنسا ردًا على بيئة لم يمكنها الانسجام معها.

الممنوعة هي جملة العادات والتقاليد والأعراف البائدة في المجتمع الصحراوي التي رفضتها مليكة مقدم وهو الوجه الآخر للحياة في الصحراء التي كان يجب أن تكون عليها. "نلمحه بين ذلك جميعه"(كيوان، ٢٠٠٢، ص ٥٠).

إن الرغبة في التحرر هي من أكثر الدوافع الكامنة خلف رواية الخباء ورواية الممنوعة على حد سواء، إنه التحرر والنهوض بالأنثى من عوالم بائسة في مجملها تعيش رهن إشارة الذكورة المتسلطة وإماطة اللثام عن عالم المرأة الصحراوية بالدرجة الأولى المسجونة خلف أسوار البادية وتحت أسقف الخيام الشديدة الحرّ، وعن عالم الصحراء بالدرجة الثانية تقول ميرال الطحاوي في الخباء: " أنا بنت شيخ العربان رسمت في الخباء البطلة الممزقة بحثا عن طفولتها وأحلام تحررها كتبت الكثير من المقالات عن الخباء ربما لأنها صورت عالما مختلفا لكن الأهم بالنسبة لي أنها قدمت تجربتي واختصرتها وهي تجربة خاصة وعالم خاص (عزوز، ٢٠١٨، ص ١٣).

وفعلا كانت الخباء ولا زالت تجربة منفردة وصوتا أنثويا دافئا يصيح وسط صحراء صعبة وقاسية باحثا عن أنثاه التي تاهت بين رمال الصحراء وعاداتها وتقاليدها التي لا تخدم الأنثى بقدر ما تنتقص منها ومع ذلك فقد عرفت الخباء جوانب ليّنة كانت تظهر بين الحين والحين عندما تصف الكاتبة أنثاها والأولى فاطمة والثانية الصحراء وتنعكس مواقف الليونة لميرال الطحاوي من خلال تركيزها في وصف الصحراء على درجة كبيرة من الشعرية أنّها شعرية متناهية العذوبة واللين ويعود سبب ذلك إلى ما سبق ذكره في مقدمة الكلام، وهو أن ميرال الطحاوي قد بنت رؤيتها حول الصحراء سلبياتها وإيجابياتها من القداسة التي احتلها المكان في ذات الكاتبة لما تعود أيضا إلى التقاليد والعادات الخاصة بأهالي المنطقة مثل طقوس الاحتفالات والأغاني الشعبية الصحراوية وحكايات الجدّة والمستقبل ورمال الصحراء الذهبية ومناخها وتقلبات أجوائها وقد أصبحت كل هذه الميزات جزء لا يتجزأ من تاريـخ المنطقة بل إنه الحاضر والماضي والمستقبل.

ولم يفت ميرال الطحاوي أن تصف وهي تكتب أشواك الصحراء وكثبانها وحيواناتها ومائها وهوائها وواحاتها كل هذا ما سبق ذكره يدخل في إطار المقدس بالنسبة لميرال الطحاوي.

صحراء ميرال الطحاوي بين المقدس والرجاء:

حسبت ميرال الطحاوي فقط هي التي ضعُفت أمام زوايا الجمال في الصحراء فوصفتها بالرغم من الجوانب الأخرى من المعاناة معاناة الطقس سلطة الأعراف والتقاليد وغيره فهناك عبد الرحمن منيف الطيب صالح وإبراهيم الكوني، يقول عبد الرحمن منيف معبرا عن جماليات الصحراء وجماليات المكان في روايتي مدن الملح والنهايات، يقول في رواية النهايات: " كان أهل طيبة يعرفون كيف يديرون الحديث بتلك الطريقة العجيبة التي تجعل الأمور ذات أهمية شديدة... وأهل الطيبة الذين يمتازون بقدرة خارقة على الحديث يدركون أن الرعاة فقدوا هذه الميزة لكثرة ما عاشوا مع الحيوانات في البراري، وهذا يدل على أن تصوير المكان من خلال أهله ينسجم مع طبيعة الحركة التي يقوم بها أهل البلدة" (ولعة، خفيف، معلم، لعور، عباس، زراد، ٢٠١٦، ص ١١٤).

انعكست ليونة ميرال الطحاوي في وصف مواطن جمال الصحراء انعكاسا إيجابيا على الرواية ككل فقد خففت من حدّة الصحراء وقساوتها ومن حدّة ذكريات الطفولة قاسية لبطلة روايتها فاطمة فهي تعني لها الكثير أقصد الطفولة التي احتضنتها رمال الصحراء وجدران البيوت، فقد اكتشفت وهي طفلة أن للصحراء سحرا لا يقاوم مثلما لها جمال لا يقاوم أيضا فأما السحر فهو راجع إلى تعلق فاطمة (الكاتبة) بالمكان وبالتاريـخ وبالمجتمع وأما الألم فهو ناجم عن صعوبة المكان وغموضه ودهشته، لقد أحست فاطمة بطلة الخبأ على عكس سلطانه في الممنوعة أحست منذ أن كانت طفلة وهي تقبل حينا على المكان وتحجم حينا آخر وأنها لا تستطيع أن تنكر تلك العلاقة الغامضة التي نشأت بينها وبين الصحراء منذ أن كانت طفلة فهي تعني لها الكثير من الذكريات والأشياء والأسرار.

"إن المدن كالبشر فلكي تقوم علاقة مع المدينة أي مدينة يجب أن يحس الإنسان بالطمأنينة بالألفة والحب وهذه تتولد نتيجة المشاركة والحاجة وأيضا نتيجة الإحساس أن هذه المدينة تعني لي شيئا خاصا"(منيف، ١٩٨٨، ص ١٧٦)، إن الصحراء أشمل من المدينة وأخطر وأجمل ولها أسرّارها ومفاتيح جمالها التي تتحول في بعض الأحيان إلى مغاليق.

إعجاب ميرال الطحاوي بالصحراء:

من حيث عناصر الطبيعة: تمكنت الصحراء من أن ترسم أثرها في ذات الكاتبة وتدفع بقلمها المبدع إلى بعض المناظر حرصا على استكمال وجهة نظرها التي تتأرجح بين البينين ونزولا عند نوستلجيا المكان وسحره خاصة إذا تعلق الأمر ببطلة واعية منذ أن كانت طفلة إلى أن كبرى وقد سبق وأشرنا أن الخباء هي تجربة خاصة لميرال الطحاوي أي جزء من السيرة الذاتية وبذلك صنعت مليكة مقدم في رواية الممنوعة أن " ما يشد الرواية إلى السيرة الذاتية مما يمكن أن نسميه بالكتابة بالذاكرة فإذا كانت الرواية عادة تواكب تطور الشخصية وتعايش مراحل تجربتها فإن السيرة الذاتية تكثف الأزمنة كلها في زمن متأخر" (القاضي، ٢٠٠٨، ص ١٦٩).

الشمس: "ومن بعيد كانت الشمس تقترب من قمم الجبال الخفيفة فتعكس الكثبان الرملية أشعتها المبهرة كنت قد وجدت أخيرا شيئا أفعله" (الطحاوي، ٢٠٠٤، ص ٢٣) لقد سلّطت الكاتبة الضوء حول أهم عنصر في الشمس الذي لا يمكن اغفاله وهو أشعتها الزاهية المبهرة وماذا ينجم عنها حين تنعكس بأشعتها الذهبية الصفراء على الكثبان المذهبة التي تحمل في أكثرها اللون الذهبي نفسه.

وهو أيضا في الشمس: "حين تبدأ الشمس في الاختباء أشعر بالتعاسة أقلّب وجهي في السماء لا شيء غير السور العالي من كل الجهات وخزائن الغلال، ربوات طينية تجاور السور قبب كبيرة وصغيرة صوامع وبرج، كيف يمكن تسلقه أرمق الفضاء والتراب والسكون وأهبط" (الطحاوي، ٢٠٠٤، ص ٣١)

الملاحظ أن شمس الصحراء لم تتعب الكاتبة بحرّها أو أنها تحملت حرّها بدل اختفائها تفاديا لوحشية المكان حين تغيب الشمس، وأنها تشحذ قوتها وتحديها من أشعة الشمس وأنوارها.

ولا تريد أن تستسلم لسلبية المكان ولا لسلبية ذاتها بعد اختباء الشمس "إذ لا تلجأ كل الشخصيات المقهورة في السرد النسوي العربي الحديث إلى الحلول السلبية إنما تواجه تلك القيود بأسرار وتحدٍ".(صفوري، ٢٠٠٨، ص ١٢١)

القمر: لم يفت ميرال الطحاوي التغني ببهاء القمر والسماء والليل تقول: " أتطلع غلى السماء هادئة ومقمرة، واللّيل خافت "(الطحاوي، ٢٠٠٤، ص ٣١) تتجلى نزعة الكاتبة التأملية الهادئة في نعتها لهدوء الليل الذي ينشر السكون بحلوله ويتجلى القمر من خلف

حجب السحاب، وبلغة حالمة وشعرية تصنع الكثير من نقيق الضفادع في الحقول المجاورة إيقاعا يكسر حاجز الصمت البهيم في اللّيل.

براءة الطفولة: اعتنت الكاتبة في تبيان جوانب اللّين في الصحراء بالتركيز على هتافات بنات صغيرات خرجن يلتففن حول القطيع. لهذه الصورة وجهين وجه إيجابي وجه سلبي وأما السلبي فهو إشارة إلى طفولة بسيطة جدًا تفتقد إلى أدنى حاجياتها إذ تقضي البنات الصغيرات وقتهن المخصص للعب في مطاردة القطيع بدل أن تستمتع بأشياء أخرى تفيد الذكاء والفطنة من طفولة الشمال، تقول: "وتجري من الأرض المنبسطة خلف سرب الماعز، وتجري حولها الصغيرات وهن يلتففن حول القطيع من كل الجهات وحمار السرب يتدلى بخرجيه بطيئا يتتبع السباق، الرمل لامسته مخضب بلون الشمس الفتية والوجوه تتشرب لون الذهب المسكوب في السماء والأرض يجرين يلاحقن العقارب الصغر في جحورها يقصمن ذيولها فيسيل السم على الرمل ويضحكن وهن يطاردن السحالي" (الطحاوي، ٢٠٠١، ص ٢٥-٢٦).

يتراءى لنا ونحن نقرأ هذا النص من الخبأ أن الكاتبة تتسلل عبر حبرها وكلماتها لتكشف عن طبيعة الحياة الصحراوية التي لا تفرق بين طفل وراشد فالكل لابد له من المواجهة والتحمل، إنها بيئة الصحراء المخيفة بعقاربها وسحاليها، وعناء أشغالها اليومية.

الوجه القاسي للصحراء:

مع هذه الشعرية في التأمل ومحاولة انصاف الصحراء بالكشف عن مواطن جمالها وأنسها لم تنس ميرال الطحاوي أن تعبّر عن معاناة حياة فاطمة في الصحراء أنها الأنثى المعذبة التي يجب أن تخضع لكل أوامر الجدّة الشريرة التي لا ترحم يقول لحسن عزوز "ورغم أن الطفلة فاطمة تعبر في بعض الأحيان عن الحنو والتدليل الذي تنعم به إلاّ أنه مغلف بالصرامة التي هي الطبع الغالب على أهل البادية تقدمهم ميرال الطحاوي"(عزوز، ٢٠١٨، ص ١١). م تستطع فاطمة وهي طفلة الخروج عن تعليمات البيت ما جعلها تكبر وهي لا زالت طفلة وتحلم وتفكر في الهروب من المكان الذي يعد بمثابة السجن لها بالرغم من كل شساعته " إذ الخباء كسلطة حاضرة مكانية زمانية تمتزج مع شخصية فاطمة الطفلة البدوية المتمردة التي جعلتها الصحراء صلبة رغم أن عودها أخضر ورغم يفاعة سنها إلاّ أنها تتحدى صرامة المجتمع البدوي وتعبر عن رغبتها الدفينة في أن تغادر هذا العالم الذي تحكمه عصا الجدّة وقسوة الموانع والضوابط" (عزوز، ٢٠١٨، ص ١١).

تنتهج الجدّة في معاملة البنات الصغيرات نهجًا قاسيا لعلها استلهمته من تأثرها بقساوة البيئة الصحراوية ولعلها استحضرته من الحفر في ماضي نشأتها هي تقول وهي تنادي بأعلى صوتها: "يا بنت أنت وهي... يا خلقة السوء" (الطحاوي، ٢٠٠٤، ص ١٦).

وتقول في مقام آخر "تتقدم منها صافية تكمل بنفس لهجتها المستاءة بلا مناسبة والله خلفتكم حرام... الله ابتلاه وهو صابر" (الطحاوي، ٢٠٠٤، ص ١٦-١٧).

تعود قسوة الجدّة على حفيداتها إلى عدم الرغبة في خلفة البنات إنها تراها خلفة سوء وعار ولا طائل منها بل المجد كل المجد لخلفة الذكور التي لم يمن بها الله عليه إنّها اعتقادات بائدة لمجتمع ذكوري متغطرس وكانت فاطمة تستاء كلما سمعت هذا الكلام: " فاطمة فاطمة أين ذهبت خلفة السوء يا نارك يا عارك يا بني من خلفة الرزايا" (الطحاوي، ٢٠٠٤، ص ٥١).

ترتبط هذه الرؤيا بالأساس في أصل توجه المجتمع الصحراوي البدائي الذي يعتقد أن قساوة الصحراء وصلابتها لن تفلح إلى بخلفة الذكور الأقوياء، وهذا هو السبب الذي دفع بفاطمة أن تفكر في الهروب في كل مرة، تقول: " عاودتني فكرة الهرب وكانت ثلاث نوافذ صيفية ضخمة مفتوحة، كل واحدة تكاد تصل السقف، أبواب ضخمة لكنها مرشوقة بالأعمدة الحديدية المتداخلة فلا يعبر فيها إلاّ البعوض الذي يطن بشراهة ولا تخرج منها إلاّ الأنفاس المتوترة"(الطحاوي، ٢٠٠٤، ص ١٥).

وتستمر الكاتبة في وصف طبيعة الحياة القاسية التي تعيشها فاطمة وترائبها بسبب القانون الداخلي للبيت الذي لا يرحم لا صغيرة، ولا كبيرة، فالجميع جنود مجندون لقضاء الحاجيات اليومية تحت وقع الشتائم والتهديد تقول: "ذا الصباح ككل الصباحات أجد نفسي على الوسادة بينما صافية تفك جدائلي بعنف وتسحبني إلى المياه رغم صراخي وهي تقذف بشتائمها" (الطحاوي، ٢٠٠٤، ص ١٥).

تشير ميرال الطحاوي من خلال هذا النص إلى الحاضر الذي تعيشه أنثى الصحراء، ترى كيف سيكون المستقبل، يكفي أنهن تعشن منعزلات عن العالم الخارجي منفيات خلف الكثبان الرملية. وتستمر الكاتبة على لسان فاطمة في نعت امتيازات المجتمع الصحراوي المغيبة تقول: "وشمس الصحراء الشرسة لا ترحم فرائسها ورأس المرأة صار كتلة من النيران المشتعلة تفور بالعرق وعيناها المحمرتان تذرفان الدم القاني والجفون المنتفخة تسح بالوجع" (الطحاوي، ٢٠٠٤، ص ١٢٩).

في مرحلة سابقة كانت الشمس منبع الأشعة الضوئية الجميلة، أما الآن فقد اكتشف وجهها الحقيقي لأن شمس الصحراء لا تشبهها شموسا أخرى من حيث الحرارة الأمر الذي جعل الجِمال تَكِلُ برغم صبرها وتجلدها تقول: " الجِمال بعدما كلّت من شوك الصحاري لفظت حدباتها وكرهت الخف والخطمة وحزنت ثم زعقت بخوار كالفحيح ولم يستطع أن يوقف جنونها" (الطحاوي، ٢٠٠٤، ص ٥٠).

بماذا يمكن أن نفسر هذين الموقفين للكاتبة؟ موقف مؤيد للصحراء وموقف معادي؟

لقد استنجدت الكاتبة في أول وصفها بحدسها وإحساسها فكشفت بلغة لينة عن بعض المواطن المقبولة في حياة الصحراء أما الآن وقد استحضرت من الذاكرة كل الأحداث منذ النشأة والطفولة فقد بدأت تستدرك الكثير من الحقائق تعد من الظواهر الواضحة في الصحراء التي سرقت أنوثة الأنثى .

وأجّلت أحلامها من جهة ومن جهة أخرى فإن أنثى ميرال الطحاوي هي أنثى مستسلمة لسلطة المكان وارتباطه بها وليست أنثى عنيفة ومتحدية ورافضة مثل أنثى مليكة مقدم يقول: لحسن عزوز واصفا فاطمة عندما رحلت إلى بيت الخواجة: " ونجد عوالم موازية مستمرة في رواية الخباء للروائية عندما عاشت في بيت الخواجة حيث تغيرت مفردات العيش لديها وهناك نتعلم اللغات الأجنبية ومظاهر الحياة المتحضرة المناقضة تماما لنموا عيشها الأول، لكن رخاء وليونة الحياة الجديدة تترافق مع شعور عميق لدى البطلة بالغربة والوحشة وهو ما يجعل وجدانها دوما متعلق بعالم البداوة الذي تشتاق إليه وتحلم به" (عزوز، ٢٠١٨، ص ١٢).

ترى لماذا تشتاق فاطمة إلى حياة الصحراء بالرغم مما وصلت إليه؟! إنها سلطة المكان في علاقته بالفرد التي لا يمكن انتزاعها من جلباب الصحراء.

المدنس والممنوع في رواية مليكة مقدم: تسرد مليكة مقدم معاناتها على لسان بطلة الرواية "سلطانة مجاهد" ولا تدخر جهدا في تصوير ذاتها بالممنوعة في مسقط رأسها بقرية عين النخلة وهي قرية متواجدة ببيئة صحراوية التواجد بها تفتقد أدنى شروط الحرية بسبب التقاليد والعادات القاسية وقساوة الرجل المنعكسة في ردات فعله تجاه كل ما تحلم به أنثى عين النخلة، الممنوعة هي: " قصة سلطانة الطيبة الجزائرية التي غادرت بلدها ومسقطها في الصحراء اللامتناهية منذ خمس عشرة سنة إلى مونبلييه في فرنسا متيقنة أنها لن تعود مرة أخرى فما عرفته من قسوة الحياة في تلك المنطقة الجافة

وسنوات مراهقتها المتمردة ودراستها الجامعية القائمة على التحدي كان كافيا لتفهم أنه لا مفر لها لكي تتحقق كامرأة وإنسانة إلاَّ بترك البلد نهائيا والعيش في فضاء آخر أكثر انفتاحا"(مفتي، ٢٠٠٨) تقول بلسان سلطانة معترفة بغيابها الطويل عن قريتها " أنا أعيش في فرنسا منذ خمسة عشرة عاما " (مقدم، ٢٠٠٨، ص ٩٣).

هكذا تقتحم مليكة معركة التحدي وعدم الصمود، إنها معركة سردية تسعى من ورائها إلى إثبات الذات و"عليه فإن السرد النسوي في مرحلة تطوره الأخيرة يتخذ موقفا هجوميا وعدائيا من الرجل لأنه حال دون أن تحقق المرأة حريتها" (صفوري، ٢٠٠٨، ص ٢٦٨).لم تطل سلطانة الوقوع في شباك القهر والظلم والتخلف والممنوع، يعني أنها لم تشأ أن تعيش مقيدة تقول: " أحب التواجد في غرف الفنادق المجردة غرف بلا ذكريات ممنوحة للحريات المتعددة قاطعة لأي صلة مع العادات، أحب أن أستيقظ في ظل غياب الأشياء اليومية" (مقدم، ٢٠٠٨، ص ٩٣).

تعيش مليكة مقدم الممنوع في أشكال مختلفة أولها ردة فعل أهل القرية عند عودتها بعد سماعها خبر وفاة صديقها وحبيبها السابق ياسين وأول هؤلاء كان الأطفال، كانت مواجهة سيئة للغاية أنهم " يعيرونها بالعاهرة تقول في نفسها لم أنسى أن أطفال بلادي يملكون طفولة مريضة منحلة، لم أنس أصواتهم الشاقة الباكرة... لم أنس عيونهم الملائكية في حين أن أفواههم لا تلفظ إلاّ أقذر الحماقات، لم أنس أنهم عدائيون لأنهم لم يتعلموا المداعبة ولو بالنظر فقط" (مفتي، ٢٠٠٨).

لم تتحمل الكاتبة نظراتهم ولا كلامهم الفاحش ولكن ما الذي تخفي وراء هذه الحدّة في الرفض الذي تواجهها أينما حلّت؟

قد يعود السبب إلى حياة الرفض التي كانت تعيشها سلطانة حين كانت هناك بالقرية وتقصد بالرفض الاعتراض على طريقة العيش داخل بيئة مليئة بالرجال لا يفقهون في أمر حرية المرأة شيئا، تقول معبرة عن ذلك واصفة لحظة عودتها إلى القرية: "يتزاحم بعض المراهقين هنا وهناك أمام أبواب المنازل الخارجية حينما وصلنا أمام المسجد خرج منه رهط من الرجال انتشرت ضوضائهم عبر الشارع" (مقدم، ٢٠٠٨، ص ١٥٨). يتضح من خلال القول أن الرجال في هذا المقام ينتمون إلى طائفة المغضوب عليهم من قبل سلطانة، إنها معادلة الممنوع والمرفوض التي تعيشها سلطانة بطلة الرواية وقد حوصرت من كل صوب وغادرت قريتها بسبب نمطية التفكير البائد في بيئة صحراوية قاحلة تسببت

في تعطيل حياتها وإمكاناتها وتأجيل طموحها.

وأما الطرف الثاني في معادلة الممنوع هم الرجال الذين مارسوا على سلطانة الكثير من الرفض خاصة عندما همت بالخروج معهم إلى المقبرة أثناء تشييع جنازة ياسين. إن جفاف الفكر في هذه البيئة يشبه إلى حد بعيد جفاف المنطقة التي شهدت على كل ما عاشته سلطانة من قسوة منذ طفولتها حتى إلحاقها بالجامعة.

بيئة الصحراء

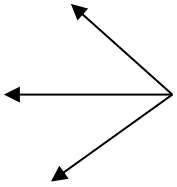

الممنوع

فئة الرجال

الفكر السائد

يظهر أن مليكة مقدم قد اعتنت في الممنوعة بتوضيح كل الممنوعات المفروضة على المرأة الجزائرية فهي تحوي الكثير من تفاصيل حياة الكاتبة التي انتهت بها في المنفى.

ذكر في بداية الكلام أن مليكة مقدم تعتبر الصحراء عالما منسيا بسبب القمع والتخلف ورجعية التفكير بخصوص حرية المرأة تقول متذكرة أيام الصبا: "في وقت لم تكن أي طفلة من القصر قد وضعت قدميها فيها كان أبوك هو الأجنبي هنا أجنبي مثقف مختلف" (مقدم، ٢٠٠٨، ص ١٨٥). إنها إشارة إلى صعوبة تأقلم المثقف المتحضر في مثل هذه البيئة. تتابع مليكة مقدم سردها بروح الأنوثة المبثوثة "كأصل في روح القول المتخيل وفي جسده المضمون والشكل أو المدلول والدال... بل أن الأنوثة تمد طاقة التخييل المتجددة بروحها ورغبتها وكيانها في الحضور الإبداعي الخلاق" (بوضياف، دت، ص ١٢).

الممنوع (الطبيعة): تقول الكاتبة واصفة أحد القصور التاريخية المهملة: " أن القصر الآن لا يأوي إلا الماعز والخرفان وبعض الحمير الذين نجوا من غزو المحركات ماذا سأفعل أنا هناك"(مقدم، ٢٠٠٨، ص ٨٨) لم يعد بمقدورها تدارك أي شيء.

هذه قريتها الخاوية وهذه هي مليكة مقدم التي لم تعد ترضى بأي شيء، ها هي تصف الزوابع الرملية التي تصحبها الرياح والتي كانت قد أودت ببعض الأرواح تقول: " ثم إن الرمل يطير مع الرياح يصعد إلى غاية السماء... أن المكثبة هي بحر هذه المنطقة إلى غاية السماء... أن المكثبة هي بحر هذه المنطقة وبداخل الرمل يوجد ناس الأحلام الذين يصعدون إلى السماء وينزلون" (مقدم، ٢٠٠٨، ص ٧٣).

وتقول أيضا عند الرمال: "وقفت أمام المسقى كان الصور الذي يحيطه مغطى بالرمال في

أماكن عديدة، الرجال واقفون ومقرفصون على طول البناية" (مقدم، ٢٠٠٨، ص ١٦-١٧) يبدو أن نفسية الكاتبة متعبة أو محبطة من طبيعة المناخ الصحراوي وربما تكون قد بدأت المقارنة بين المناخين مناخ منبولييه أين هاجرت ومناخ قريتها الصحراوية.

هكذا يتلخص الممنوع والمرفوض تجاه كل ما تفكر سلطانة في القيام به. "ولذلك جاءت رواية الممنوعة تحمل ضحكات صامتة من حياة حزينة قاسية، سيرة مليئة بأحزان وخيبات وجروح تنقل مآسي صورة عن ذكريات تتناثر أحرفها هنا وهناك محاولة من خلال شخصيتها المحورية سلطانة أن تعيد إليها الأمل من جديد في شكل رثاء لزمن مضى مخفي مستتر في زاوية لكن يبقى مضيئا تارة ومظلما تارة أخرى" (جبايلي، ٢٠١٥، ص ٨٨).

بالرغم كل اعتراض مليكة مقدم على نمط الحياة في الصحراء وبعض تفاصيلها إلاّ أنه يحدث لها ما حدث لميرال الطحاوي في تعلقها بالصحراء. أما مليكة مقدم فهي التي ما لبثت أن عادت لمسقط رأسها بمجرد سماع خبر موت صديقها ياسين، إذ تشتركان (ميرال الطحاوي ومليكة مقدم) في انتصار المكان عليهما بالرغم من اختلاف المنطلق الأساس في نظرتيهما للصحراء انطلاقا من المقدس والمدنس.

الخاتمة:

حاولت ميرال الطحاوي الانتصار للأنوثة في مكان يتعارض كليا مع معظم متطلبات الأنوثة البسيطة ومواصفاتها.

- حاولت في أكثر من موقع أن تنتصر من خلال الخباء لأنوثة مخبوءة وكادت تظل مخبوءة دهرا من الزمن وجيلا بعد جيل وقد استغلت ذكاء الأنثى في إحياء الاهتمام بأنثى الصحراء، معتمدة في ذلك على طاقة الأنوثة وهي طاقة حيّة مقاومة ومتجددة، ولا تكترث بالمعوقات .

يفترض أن تكون الصحراء هي الفضاء الأرحب والأنسب الذي تمارس فيه أنثى ميرال الطحاوي أنوثتها واكتمالها وظهورها بدل ضمورها ولذا فإن إشكالية الأنوثة المقموعة تحت وطأة جملة التقاليد والأعراف التي تواضع عليها أهل المجتمع الصحراوي ببعده الذكوري كما صورته ميرال الطحاوي ومليكة مقدم من أهم المسائل التي دفعت بالكاتبتين إلى التمرد ومناشدة الهروب من أجل التغيير ومناشدة المجتمع أفضل تتمكن فيه من التعبير عن ذواتهن.

إن المرأة مهما قدمت من تضحيات وتنازلات وطاعات جعلتها تبدو الأضعف في نظر أهلها وكل من حولها فإنّه لابد لصوت الأنثى من أن يغرّد حتى ولو جاءت تغريدته خارج السرب وهذا " يؤكد أن الأنوثة موجودة كأصل جوهري لدى المرأة وهو الأصل الذي يهم بالظهور والحضور في حركة الإبداع المتخيل لديها" (رسول، دت، ص ١١).

للمكان سلطته لأنه يمارس حضورا رهيبا ويعكس منذ القصيد الجاهلية أكمل صورة في علاقته بالإنسان وانطلاقا من هذه الرؤية فقد اتخذت الصحراء مكانا وذاكرة وتاريخا (مقدسًا كانت أو مدنسا) انتصارها على الكاتبتين فلم تستطع كليهما التخلص من علاقة الانتماء بالمكان الصحراوي بالرغم من كل المعاناة والقمع الذي مورس على فاطمة في الخباء وكل نساء قريتها وسلطانة في الممنوعة نظرا لانتصار نوستالجيا المكان على ميرال ومليكة، مليكة التي قوبلت بالرفض حينما عادت إلى قريتها بعد خمسة عشرة (١٥) سنة من الغياب وقد تعرضت إلى الشتم من قبل أهل قريتها بدءا بالأطفال عنوان البراءة المشوهة والناقصة كما تراها مليكة مقدم.

تعود الرؤية السلبية التي طرحتها مليكة مقدم في الممنوعة بخصوص الصحراء أو الحياة في الصحراء، وحياة المرأة (الأنثى) بالذات إلى أنها ركزت في بناء رؤيتها على استحضار كل اللاءات الناهيات المفروضة على أنثى الصحراء وكل المحرمات والممنوعات التي فرضت على المرأة الصحراوية فرضا بل أصبحت حتمية يجب عليها الامتثال لها وتطبيقها. ومن ناحية أخرى فقد ركزت مليكة مقدم أيضا على ما تلاقيه المرأة الصحراوية والجزائرية بصفة عامة في مجتمع بدوي وصحراوي وأبوي أي ذكوري بالدرجة الأولى وهذا ما جعلها تفر بذاتها لتستقر في بلد الحضارة فرنسا.

إذا كانت فترة المراهقة والطفولة بذكرياتها إلى حد ما قد شفعت لميرال الطحاوي في بناء نظرتها للصحراء فإنّها لم تظل إلى الآخر ولم تمنع ميرال الطحاوي من الإشادة إلى ما تخضع له حياة الصحراء من تراكمات العادات والتقاليد البائدة للمنطقة التي أثرت أيما تأثير على حياة وأنوثة ومستقبل فاطمة وسلطانة (بطلتا الروايتين).

لعبت حياة الغربة والحنين التي عاشتها مليكة مقدم ومثلها ميرال الطحاوي دورا كبيرا في تفجير موقف لمليكة مقدم من قرار العودة إلى مسقط رأسها بعد سماعها بوفاة ياسين. حبيبها السابق وقد كان ذلك سببا واهيا مقارنة في رغبتها الحقيقية في معاودة المكان واستحضار أجمل الذكريات وأتعسها.

يُعد الممنوع الذي عاشته مليكة مقدم والمحرمات التي أجبرت على التقيد بها من قبل الأهالي هي من الأسباب الرئيسية في رفضها للممنوع.

لم تكن مليكة مقدم ترضى بأن تعيش ممنوعة في قريتها.

هل انتصرت ميرال الطحاوي ومليكة مقدم لأنثى الخباء والممنوعة أم لأنثى الصحراء أم للصحراء باعتبارها أنثى موازية.

Refernces

- Ibn Manzur (2004). Lisan Al-Arab Dictionary (4th edition). Lebanon: Dar Sader Beirut
- Boudiaf, Ghania (d. T.). Female writing and female writing, Ahlam Mosteghanemi as a model. Department of Arabic Literature and Language, Mohamed Kheidar University (Biskra)
- Jabaili, Samra (2015). The feminist voice in Algerian literature written in French, the autobiographical novel Malika Moghadam as a model (Master's thesis). Algeria: Hajj Lakhdar University (Batna)
- Messenger of Muhammad, Messenger (dt). Narrative femininity is a semiotic reading in the Gulf novel
- Safouri, Muhammad Qasim (2008, November). The poetics of modern Arab feminist narrative (PhD dissertation). Faculty of Human Sciences, Department of Arabic Language and Literature, University of Haifa, Palestine
- Eltahawy, Miral (2001). The hidden. Cairo: Egyptian General Book Authority, Family Library
- Azouz, Lahcen (2018). The paean to the feminist self and future formation in Mayal El-Tahawy's novels. Department of Arabic Language and Literature, Shahid Mohamed Lakhdar University (Oued, Algeria)
- Al-Qadi, Muhammad (2008). Novel and History, Studies in Reference Imagination (1st ed.). Tunisia: Dar Al-Ma'rifa Publishing (Faculty of Arts and Letters, Manouba University)
- Kiwan, Abdul Muti (2002). Body Literature between Art and Sadness: A Study in Women's Narrative (1st ed.). Cairo: Center of Arab Civilization.
- Intermediate Dictionary (2004). Cairo: Cairo Arabic Language Academy, Shorouk

International Library

- Mufti, Bashir (2008, December 28). Forbidden. Retrieved on: 09/20/2019 from the website: www.alhayet.com
- Moghadam, Malika (2008). Forbidden. Algeria: Difference Publications, Beirut: Arab House of Sciences - Publishers
- Munif, Abdul Rahman (1988). Between Culture and Politics (1st ed.). Beirut: Arab Cultural Center.
- Welaa Saleh (project leader), Khafif Ali, Muallem Warda, Laour Hajira, Abbas Samiha, Zarrad Jannat (members) (2016). The desert imagination in the Arabic novel. Annaba University (Algeria): General and Comparative Literature Laboratory Publications.